الفصل الخامس
" الحس السياسي عند المصري القديم"

ويشمل :

أولاً: تمهيد:

ثانياً: تعاليم تحوتمس الثالث لوزيره (رخ-مي-رع) ، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم.

ثالثاً: تعاليم الملك خيتي الثالث (أو أختوى) لابنه (مري- كا- رع) ، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا.

رابعاً : بردية "القروي الفصيح" وضرورة أن يكون الحاكم " سياجاً" يحمى الضعيف من عسف القوى.

أولاً: تمهيد:

يعتبر الإنسان المصري القديم أقدم سياسي عرفة التاريخ الإنساني كله، سياسي عمره من عمر الزمن، علّم الدنيا كيف تحكم بالعدل بين الناس، وكيف تصنع القوانين التي تساوى بين الحاكم والمحكوم، وكيف يتكلم الحق في حضورهك ويسكت الباطل ، وكيف نجمل الحياة حباً وعشقاً وأدباً وفضيلة.

وهذا المصري المعلم والمشرع هو أول من اشتغل بالسياسة يوم أن كون أول حكومة منظمة، وأول دولة عريقة في التاريخ المكتوب كله، وهي التي أعلنها مينانارمر عام ٣١٥٠ ق.م، وقبل أن يخرج الإنسان الأوربي، الذي يتكبر الآن ويتبجح خيلاء بما وصل إليه، من الكهوف التي كان يعيش فيها فوق الجبال، وداخل الوديان والغابات بقرون طويلة.

ولكي نعرف كيف كان يعيش المصري حاكماً أو محكوماً، يملك الرقاب والعباد، أو زارعاً فقيراً ليس له من الدنيا إلا صحته وقطعة من طين الأرض يزرعها حبّاً وحُباً وضحكاً وشبعاً، ولكي نعرف كيف كان الوزراء يحكمون بين الناس إنْ خيراً أم شراً، إن عدلاً أم ظلماً، نتصفح بعض نصوص مصر القديمة.

فهذا مينا موحد القطرين، ومكون أول حكومة عرفها التاريخ، يرسي أول قواعد ثابتة للحكم، أساسها العدل والمساواة بين الجميع، فيعلن حق كل فرد في الهواء والماء، وفي أن يعيش آمنا مطمئنا، لا يظلم ولا يظلم، وفي ضرورة أن تسود روح المودة والتسامح بين الجميع، يتساوى في ذلك فقيرهم وغنيهم، ضعيفهم وقويهم، حاكمهم ومحكومهم؛ استمع إليه يوصي وزيره بما قاله الإله:

" لقد خلقت الرياح الأربع حتى يستطيع كل إنسان أن يتنفس مثل أخيه.. والمياه العظمى حتى يستطيع الفقير أن يشرب منها ويروي حقله وزرعه كما يفعل سيده .. لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه تماما .. ولقد حرمت أن يظلم الناس بعضهم بعضا، لكن قلوبهم نقضت ما أمرت به وما شرعت".

ثانياً: تعاليم "تحوتمس الثالث" لوزيره "رخ-مي-رع"، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم:

اشتهر اسم "تحوتمس الثالث" كقائد حربي من الطراز الأول، يضع الخطط وينفذها، ويلجأ إلى أساليب جديدة في فن القتال، يتحلى بشجاعة نادرة، و لم يكن يطلب من أحد جنوده أنْ يفعل أمراً لا يستطيع هو نفسه أنْ يفعله.

وتخبرنا وثائق مصر القديمة أنَّ ميزاته الحربية لم تكن إلاّ إحدى نواحي تميزه، فقد حكم إمبراطوريته الواسعة بالحزم واللين، وكان يعرف كل ما يحدث في أرجائها، وكان كما قال عنه وزيره "رخ-مي-رع" كالصقر يرى كل شئ [1].

أدرك تحوتمس أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته، إذا لم تقم على أساس المودة، ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه، بل قرَّبهم وثبتهم في وظائفهم، وقبِل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة، ولكنه رأى أنْ يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا في مصر مع أبنائه، ومع أبناء كبار الموظفين، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم، ولكي يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين.

وكانت رحلاته الخارجية إلى سورية والعراق، غير مطبوعة بالطابع الحربي فقط، بل بطابع آخر، فقد أصدر أمره إلى رجاله بأنْ يُدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو نبات، ونرى صوراً لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات - التي أمر بإحضارها إلى مصر - على جدران إحدى القاعات التي بناها في معبد الكرنك.

وليس من المُستغرب بعد ذلك أن نرى بعض مظاهر الفن السورية والعراقية بدأت تظهر في البلاد، وبدأ كثيرٌ من الآسيويين يستقرون في وادي النيل، وكانت لهم الحرية التامة في أنْ يعيشوا كما كانوا يعيشون في بلادهم، ويعبدوا آلهتهم الآسيوية كما يحلو لهم.

---

[1] أحمد فخري: مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م.)، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، أكتوبر ١٩٦٠ م، ص ٢٨٢-٢٨٣.

أمّا نظرة هذا الفرعون إلى الحكم، وكيف يجب أن يعامل الناس، فإننا نقرؤها على جدران مقبرة الوزير "رخ-مي-رع"، وهي وصايا هذا الملك لوزيره يوم أسند إليه منصب الوزارة، ورسم له الطريق الذي يجب أنْ يسير عليه، وتقدم هذه الوصايا صورة مفصلة، وتوضح الأساليب الفنية لأعباء منصب الوزير (من قضائية ومالية وعسكرية وإدارية وزراعية)، وبالتالي فهي ليست دستوراً صالحاً للماضي فقط، بل صالحة لكل زمان ومكان، وفيها تحليلٌ نفسيٌ للشعب، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم.

يقول تحوتمس موجهاً كلامه إلى وزيره "رخ-مي-رع"، على مسمع من الشعب:

"لا تنس أنْ تحكم بالعدل لأنّ التحيز عدوانٌ على الآلهة.."

عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمُقرب من الملك كالبعيد عنه..

أعلم أنك سوف تصل إلى تحقيق الغاية من منصبك، إذا جعلت العدل رائدك في عملك، إن الناس ينتظرون العدل في كل تصرفات الوزير، وهي سُنة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله في الأرض..

عندما يأتي إليك شاك من الوجه القبلي، أو الوجه البحري، أو من أي بقعة في البلاد، عليك أن تطمئن إلى أنّ كل شئ يجري وفق القانون، وأنّ كل شئ قد تمّ حسب العُرف الجاري، فتعطي كل ذي حقٍ حقه.." [1].

و لم يكن في قدرة الملك أنْ يقضي بعقوبة على أحدٍ من الناس مدفوعاً بكيدٍ له، أو غيظ منه، أو بأي دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة، وأكثر من ذلك، فإنّ واجب العدل، الذي يقع على عاتق الملك، لم يكن مجرد واجب أخلاقي، وإنما كان واجباً دينياً وسياسياً في الوقت نفسه، فرغم النظر إلى الفرعون بوصفه إلهاً، فإنّ صعوده إلى السماء عند موته لم يكن، في الاعتقاد الديني المصري القديم، يتم بصورة آلية، وإنما كان مشروطاً بأنْ

---

[1] النص المصري: - Urkunden, IV, pp. 1088-1093

راجع أيضاً النص الذي نشره:

- R.O. Faulkner in Journal of Egyptian Archeology, 1955, vol. 14,pp.18 sq.

يكون قد أمضى على الأرض حياة فاضلة قام خلالها بواجباته نحو الآلهة الكبرى ونحو البشر.

ففي المفهوم الديني المصري القديم، كان الملك، شأنه شأن البشر، يُسأل عن أفعاله يوم الحساب، وكان عليه أنْ يدافع عن تصرفاته أمام قُضاة العالم الآخر، ولم يكن يُسمَح له بالصعود إلى السماء، إلا بعد أنْ يقتنع القضاة بأنَّه فعلاً عاش حياة طيبة، وأدى واجباته على النحو المطلوب، وإذا ثبت على العكس، أنَّ حياته لم تكن فاضلة، وأنَّ أفعاله كانت آثمة، كان مصيره جهنم.

ففي آخر أيام الجِداد، يضعون النعش الذي يضم مومياء الملك، أمام مدخل القبر ويُشكلون - طبقاً للطقوس - محكمة تنظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا، وقد أباحوا لمن شاء، أنْ يتهمه، أمَّا الكهنة فتؤبنه معددةً مناقبه، وألوف الناس التي اجتمعت لتشيعه تنصت إليها، وتشترك في تأبينه، هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياة مجيدة، أمَّا إذا كانت حياتُه على العكس، وضيعة، تصايحت الجماهير، وقد حرم كثيرٌ من الملوك حق الدفن الرسمي الذي تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب، ولذلك كان من يخلفونهم على العرش، يقيمون العدل، لا لما سبق من أسباب فحسب، بل خوفا من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك (١).

إن ملكا له القدرة على إلقاء مثل هذا الخطاب، يقترب من سمت وقوام ذلك الملك المثالي الذي كان يحلم به مصلحوا مصر القديمة الاجتماعيون، ولا يوجد شك في أن ذلك الملك المثالي كان (رع)، الذي كانت لتتجدد أمجاد حكمه الخلقية في نائبه الفرعوني على الأرض.

إنَّ الملك كان يرجع إلى موافقة حكم إله الشمس، وخصيصته التقليدية ، كأساسٍ نهائي لإرشاده للوزير، إنه (رع) الذي له السيطرة في تفكير هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين.

إنَّ الالتزام الخلقي الذي يشعر به الناس في داخلهم، أصبح أمراً رسمياً من الإله، وسرعان ما أصبح مقتهم للجوده، مقت الإله له، ومُثليهم العليا الخاصة، وقد أصبحت كذلك مُثل الآلهة العليا، كسبت قوة الوصاية.

---

(١) راجع مصر الفرعونية، ص ١٧١، وما بعدها.

ولنترك القصر، ونُيمم شطر الأقاليم والمقاطعات حيث نجد:

(أ) (أحينما) حاكم الإقليم السادس في عهد الملك سنوسرت الثالث، الذي حكم مصر قبل ٣٨٧٤ سنة، يقول:

"أني لم استعمل القوة مع أية ابنة من بنات الأهالي، ولم أظلم أية أرملة، ولم أقبض على عاملٍ ما، ولم أطرد راعياً من أرضه، ولم يكن هناك رئيسٌ أخذت منه عُمّاله أثناء العملِ".

(ب) وحاكم إقليم آخر في أسيوط، يدافع عن تصرفاته، قائلاً:

" لقد كنت في حياتي رجل ورعٍ وتقوى، وقد أحبني الناس، كما دعت لي أمهاتهم بالخير، فقد كنت أرعى وأحمي شيوخهم وعجائزهم، ولم أستعبد بنت أحدٍ منهم، وكنت أطعم الجائع وأكسو العاري".

(جـ) وثالث يقنع قضاة العالم الآخر بقوله:

"لقد أعطيت خبزاً للجائع، وثياباً لمن كان عارياً، لقد أعطيت قدراً من اللبن ومكيالاً من الغلة الآتي من (الوقف الأبدي) للجائع، الذي كنت أجده في إقليمي، لقد رددت بنفسي، نيابة عن كل إنسان وجدته، وليس لديه سوى غلة مقترضه من آخر، هذه الغلة إلى المُقرض، بواسطة "غلال" من (الوقف الأبدي)، لقد دفنت كل إنسانٍ لم يكن له ابن، بأقمشة من الكتان الأبيض".

(د) ونقرأ، في نقش بأحد المعابد، كلمات لأحد الحكام، قوله:

إنه أنقذ الأرملة، وواسى المتألم، ودفن المسُن، وأطعم الطفل، ووقف إلى جانب مدينته في زمن الجدب، وهو الذي أطعمها في وقت القحط، وهو الذي زودها بسخاءٍ بلا تمييز، فكان عظماؤها في ذلك مثل أصاغرها.

(هـ) ويضع حاكم - أميني (في بني حسن) - على باب قبره، بياناً يُسجّل العدالة الاجتماعية في معاملته للكل، كأحسن جواز سفر، يمكن أنْ يبتدعه لأجل الرحلة الطويلة، رحلة الأبدية، يقول (أميني) عن سياسته الإدارية كسيد إقليم:

"... لم تكن توجد ابنة مواطن أسأت إليها، لم تكن توجد أرملة أوقعت عليها خطباً، لم يكن يوجد فلاح أبعدته (انتزعت ملكه)، لم يكن يوجد راعي قطيع طردته، لم يكن يوجد مشرف على خمسة أخذت أهله من أجل الضرائب

(التي لم تدفع)، لم يكن يوجد تعس في مجتمعي، لم يكن يوجد جوعان في عهدي، وعندما حلّت سنوات المجاعة حرثت كل حقول إقليم المهاة (ضيعته) حتى تخمه الجنوبي وتخمة الشمالي، وحافظت على حياة الناس، وقدمت طعاماً حتى لم يكن يوجد في عهدي جوعان، وكنت أعطي الأرملة، كما كنت أعطى المرأة ذات البعل، و لم أرفع (الرجل) العظيم فوق (الرجل) الوضيع في كل شيء أعطيته، ثم جاءت أوقات ازداد فيها النيل ازدياداً عظيماً (فيضانات) مستحوذاً على الحنطة وكل الأشياء، (ولكني) لم أجمع متأخرات الحقل" [1].

في هذا السجل يبدو أننا نسمع صدى تنصيب الوزير، وخاصة في عبارة "لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الوضيع في كل شئ أعطيته"، ومن السهل أنْ نعتقد أنّ مثل هذا الشريف كان يحضر في القصر، وأنه سمح إرشادات فرعون عند تنصيب الوزير.

ونستنتج من هذا، أنّ التعاليم الاجتماعية، التي كان يُلقيها الحكماء في القصر، كانت معروفة على نطاق واسع بين العظماء في جميع أرجاء المملكة، ومن الواضح أنّ المُثل العليا للعدالة الاجتماعية، التي تعرض في مثل هذا الإلحاح في أدب العصر، لم تصل فقط إلى الملك، ولكن كان لها تأثيرٌ عميقٌ أيضاً بين الطبقة الحاكمة في كل مكان.

هذا، وكانت هناك شروطٌ معينة ينبغي توافرها فيمن يشغل منصب القاضي، كما كانت هناك قيود على حرية القاضي في الاتصال بالجماهير، رغبة في قيام القضاة بمهمتهم على الوجه الأكمل، بل إنّ قانون (حور محب) [2] اشترط اختيار القضاة من أحسن الناس سيرةً، وأكرمهم خلقاً، كذلك حرّم على القضاة أنْ

---

[1] راجع برستد: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ٣٤١-٣٤٢.

[2] "حور محب" (حرفياً "حور-إم-حب" أي "حورس- في عيد" هو آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (حوالي عام ١٣٤٠ ق.م.)، لم يكن من سلالة ملكية، وفي أعقاب نزعة التوحيد التي قادها اخناتون في تل العمارنة، استعاد كهنة "آمون" في طيبة سلطانهم في ظل الحكم القصير للملوك ضعاف من أمثال "توت عنخ آمون" و"آي"، وكان القائد العسكري "حور محب" قد تولى على ما يبدو مسئولية الجانب الأكبر من الإدارة الملكية في السنوات الأخيرة من حكم الملك "آي"، وقد برر اعتلاءه العرش بالرعاية التي حظي بها من "حورس" راعي هذه المدينة -طيبة- الذي رافقه حتى طيبة لمقابلة "آمون" الذي أنعم عليه بالملكية (بوصفه صاحب عرشي القطرين) أثناء أحد الأعياد الكبيرة التي كانت تحتفل بها الأقصر.

يصادقوا أحدا من الناس، أو يتهادوا مع الناس، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مادية، وللحفاظ على نزاهة القضاة، جاء تشديد العقوبة على القاضي المرتشي أو المنحرف، وعلى شاهد الزور، أيضا فقد عاقب قانون (حور محب) القاضي المرتشي بعقوبة الموت، كذلك كان شاهد الزور يعاقب عقابا صارما يتمثل في صلم أذنيه وجدع أنفه أو نفيه إلى مناطق نائية.

ثالثا: تعاليم الملك خيتي الثالث (أو أختوي) لابنه (مري-كا-رع)، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا:

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة في مصر في أواخر أيام إهناسيا، تلك البردية التي تحتوي على النصائح والتوجيهات التي وجهها الملك خيتي الثالث (أو اختوي) إلى إبنه (مري-كا-رع) قبل أن يتولى الحكم في عام ٢١٢٠ ق.م. ، أي قبل ٤١١٦ سنة [1].

وفي هذه التعاليم يحاول أختوي أن يعطي خلاصة تجاربه لابنه، حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء، ويبدأها بتحذير ابنه من أي تابع له يكثر من الكلام،

---

[1] هذه البردية في متحف لينينجراد، ومرقومة تحت رقم ١١١٦أ، وأول من نشرها جولينيشيف في عام ١٩١٣، وظهرت لها ترجمات كثيرة في اللغات المختلفة، وقام (شارف) بدراستها دراسة وافية في عام ١٩٣٦ ونشرها تحت عنوان:

- A. Scharff, Der historische Abschnitt der Lehre Fuer Konig Merikare (SBAW, 1938).

وقد نشرها مرة أخرى (فولتين):

- A Volten, Zwei a Agyptische politische schriften (A nalecla Aegyptiaca, Iv) Copenhagen, 1945.

و"خيتي الثالث" هو من أواخر ملوك الأسرة العاشرة التي حكمت مصر، وكانت عاصمتها "هرقليوبوليس" في الفيوم، ولكن ظل جزء من الوجه القبلي بعيدا عن سيطرتها (وكان جنوب الوجه القبلي قد توحد تحت سيطرة أمراء طيبة الذين سرعان ما أعادوا توحيد البلاد لحسابهم، بينما عانى الوجه البحري من مشاكل كثيرة نتيجة تسلل الشعوب الآسيوية (لا سيما في قسمه الشرقي)، وتمدنا هذه "التعاليم" بإيضاحات عظيمة الفائدة حول الأوضاع السياسية لذلك الزمن، وحول مبادئ الحكومة الملكية ذاتها و"واجبات" الملك تجاه الآلهة وتجاه البشر على حد سواء.

ووراءه أتباع كثيرون، فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين النـــاس، وينصحـــه بقوله:

"اطرده، اقتله، أمح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه"

ويوصي (ابنه) بعد ذلك بأن يكون فنانا في الحديث لأن "اللسان كالســـيف للإنسان"، وبأن ينهج سبيل آبائه وأجداده، وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة، وألا يفعل الشر، وأن يتحلى بالصبر، ويترك وراءه ذكرى حسنة من حـب الناس له.

ويحذر أختوي ابنه من الطمع، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده، وأن يعلـي من شأن رجاله، ويقويهم، لأن الغنى في غير حاجة "لمحاباة غيره، أما الفقير، فإنـه لا يقول الحق الذي يؤمن به، وإنما يحابي من يملك شيئا يعطيه له، فيقول لابنه:

"ما أعظم الشخص عندما يكون رجاله المقربون عظماء، وما أشجع الملـــك الذي يكون له رجال بلاط، وما اعظم وأقوى الذي يكون له نبلاء كثيرون".

ويكثر من نصح ابنه لإتباع جادة الحق وإقامة العدل، ويحذره مـــن ظلـــم الأرملة، ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه، وألا يطرد الموظفين من وظائفـهم، ويقول له:

"حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه، لا تقتل فإن ذلك لا يجديـــك شيئا، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال، فتصلح الأمور في البلاد، اللهم إلا الثـــائر عليك الذي تتثبت من أمره.

المملكة بكاملها تعتمد على حكمك الرشيد، وإنه لمما يغبط القلب أن تـرى العمال مشغولين بعملهم، لكن من الخطأ أن تطلب من الشعب الكثير، فمن شـــأن هذا أن يجعلك غير محبوب، وسوف يمحو ذكراك، وذكرى أسلافك لأنهم يعتمدون على محبتك.

لتكن عادلا نحو المواطنين المقيمين في البلد، فأنت عنهم مسئول.

لتحكم بالعدل في بيتك، لكي يخشاك النبلاء الذين يحوزون الســـلطة علـــى الأرض.

أحكم بالعدل طالما بقيت على الأرض، وواسِ الباكين، ولا تضطهد أرملة أو يتيماً، ولا تحرم رجلاً من مال أبيه، ولا تعزل القضاة من مناصبهم دون أسباب مشروعة ومعقولة".

ولأول مرة في تاريخ مصر، نقرأ في تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت، يقف أمامها الإنسان صاغراً، ولا ينفعه أمام قضاتها إلا العمل الصالح، "فإنّ أعماله توضع مكدسة إلى جواره" [1].

ويشير أختوي إلى الشباب. فينصح ابنه بالعناية بهم، وتقريبهم منه، وأنْ يمنحهم الحقول، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية، ولكنه يحذره بشدة من أنْ يُميِّز ابن شخصٍ غنيٍ على ابن شخصٍ فقير، بل يجب أنْ يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية.

ويحذر ابنه من الاعتداء على آثار الآخرين، ومن محاربة الجنوب، لأنّ ذلك يُعطي فرصة للبدو الآسيويين، فيعيثون فساداً في الدلتا، ويذكر (أختوي) ما جره عليه اصطدامه بالجنوب، "أنظر! لقد حدثت نكبة في عهدي، لقد تحطمت مناطق عديدة، حدث ذلك حقاً بسبب ما فعلت، ولكني لم أعلم به إلاّ بعد حدوثه، انظر! لقد جوزيت على ما اقترفت".

ويوصي اختوي ابنه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية، وترتيب القرابين، وأنْ يُرضي الله، فإنّ الله يعرف الذين يعملون من أجله، فنجده يختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه، فهو يعلم السر وما يخفى، ويذكره بألا ينسى آخرته، وأنْ يعمل لليوم الآخر، ذاكراً نعم الله عليه، ويقول (أختوي) عن الله:

"إنه هو الذي خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أي الناس)، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلاّ صوراً له، إنه يشرق في السماء ليلبي رغبتهم، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها".

وما أجمل قوله:

"إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير، أكثر من قبوله للثور الذي يقدمه الشرير (كقربان) للآلهة."

---

[1] راجع الدكتور أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م، ص ١٧٢.

وما أصدق عبارته التي يشير فيها إلى أنّ الله يوقّع عقابه على بعض النـــاس لمصلحتهم:

"إنه (أي الله) يقضي على من يملأ الشر قلبه بينهم (أي الناس) كما يضـرب الأب ابنه إكراماً لأخيه، لأنّ الله يعرف كل إنسان".

وهذه البردية لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالـــة الداخليـة في البلاد، بل تمدنا بما هو أهم من ذلك، وهو:

(أ) ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع، فلم يعد الملك ذلك الإله المـترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذي يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شئ مـن إحسانه في الدنيا والآخرة، بل أصبح شخصاً يتحدث عن ضعفه ويردد عبـــارات ندمه كسائر البشر.

(ب) ونقرأ في البردية شيئاً آخر تزداد أهميته، لأنّ قائله ملك يعترف له شعبه - ولو نظرياً - بالألوهية الملكية، وهو أنّ سعادة الإنسان في آخرته تتوقف علـــى عمله في الدنيا، ولا تتوقف على رضاء الملك فقط.

(جـ) ونقرأ فيها أيضاً أنّ كل امرئ مهما كان مركزه، سيحاسب علـــى أعماله أمام محكمة الآلهة، وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها مـــن خير وشر، وأنّ السعادة في الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يُبنى، أو على قرابين تقدم بانتظام، ولكن الله يعرف ما في القلوب، ويطلب من عبـــاده أنْ تحســـن نيـــاتهم، ويذرون وراءهم الطمع والشر، لأنّ النيات الحسنة هي التي يقبلها، وهي أقرب إليـه من القرابين التي يقدمها المذنبون ليكفروا بها عما اقترفوه من إثم.

وهكذا تمدنا هذه البردية بمعلومات قيمة عن قيمة الإنسان المصري وحقوقـه، وعن معنى الخلق الكريم، الأمر الذي غيّر الشيء الكثير من نظـــرة المصريـــين إلى حكامهم بوجهٍ عام، وجعلهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق.

رابعاً: بردية "القروي الفصيح"، وضرورة أنْ يكون الحاكم "سياجاً" يحمي الضعيف من عسف القوي:

تُعتبر بردية "القروي الفصيح" [1] قطعة أدبية ذات هدف خُلقي أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها، وأظهر فيها مقدرته في اللغة، تتكون من مقدمة على صورة قصة، وتسع شكاوى في موضوع واحد، وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه، وحمايته من الغني الطامع، وأنْ يكون الحاكم سياجاً وملجأً للمظلوم ويخشى من عقاب الله، إذا انحرف عن الطريق السوي.

وإليك بعض تفاصيل ومرامي هذه القصة اجتماعياً وسياسياً.

كان يعيش أحد القرويين واسمه (خو إن أنوب) في وادي النطرون، يذهب ببعض محاصيله لبيعها في إهناسيا، ثم يشتري بثمنها غلالاً يعود بها إلى أهله، وبينما هو في طريقه رآه من بعيد شخصٌ يسمي (تحوتي نخت) - من أتباع رنسى بن مرو الذي كان رئيس مديري القصر الملكي، ومن كبار موظفي البلاد، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم - انتوي (تحوتي نخت) هذا، اغتصاب ما مع فلاحنا الفصيح، وكان بيت (تحوتي) قريباً من جانب الطريق الضيق الذي سيمر منه فلاحنا، وكانت الحقول على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء، فأمر (تحوتي نخت) أحد خدمه، فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق، فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع في الحقل، بينما تدلّى الطرف الآخر في مياه الترعة التي كانت هناك، أي أنّ ذلك النسيج غطى عرض الطريق، فلما وصل فلاحنا، حذره (تحوتي) من أنْ تدوس حميره على النسيج، فصدع للأمر، وساق حميره على حافة الطريق من ناحية حقل الشعير وهنا نهره (تحوتي نخت) سائلاً عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقاً لحميره، فأجابه فلاحنا بأنّه لا يقصد سوءاً، فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش، ولم يعد هناك مكانٌ يسير فيه

---

[1] كُتبت هذه البردية، ووقعت حوادثها في أواخر أيام الأسرة العاشرة في إهناسيا، وأول من لفت إليها الأنظار العالم الأثري "شابا" في عام ١٨٦٣، ونشر (فوجزلزانج) نصوصها نشراً كاملاً.

- Vogelsang, Kommentar Zu den Klagen des Bauern, Leipzig, 1913.

وقد تُرجمت عدة مرات، أحدثها ترجمة ولسون في كتاب:

- Ancient Near Eastern Texts.

ومُترجمة أيضاً إلى العربية في كتاب:

سليم حسن، الأدب المصري القديم، الجزء الأول، ص ٥٤ ومابعدها.

إلا حقل الشعير، وفي أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير، فأكل شيئا من حقل الشعير، وعند ذلك قال (تخوتي نخت) إنه سيستولي على ذلك الحمار ثمنا لما أكله، فصرخ فلاحنا سائلا إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه، ويردد الاعتراضات السابقة التي تتسم بالاحترام، ولكنه يضيف احتجاجا جريئا هو:

"إن طريقي مستقيم وجانب منه موصد، ولما أسوق حماري بمحاذاة طرفه تستولي عليه، لأنه اقتطف لقمة من الحنطة، إني أعرف سيد هذه الضيعة، إنها ملك ابن مرو رنسى، والآن، إنه هو الذي يطرد كل لص في البلاد بأجمعها، هل يحدث، على هذا، أني أسرق في ضيعته؟"

فنهره (تخوتي نخت)، وأخذ غصنا من شجرة، وأوسعه ضربا، وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة، ولم يكتف بذلك بل أمر فلاحنا بالسكون، عندما ارتفع صوت الأخير باكيا، لأنه على مقربة من معبد "رب السكون" (أي أوزيريس)، فصاح فلاحنا:

"إنك ضربتني وسرقت متاعي، وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمي!! يا رب السكون رد إلي بضاعتي حتى لا أصيح.."

وظل المسكين عشرة أيام كاملة يستجدي ظالمه أن يرد إليه حميره دون جدوى، فسار في طريقه ليشكوه إلى (رنسى) نفسه في العاصمة، وبلغت شكاواه تسعا صيغت بأسلوب فصيح، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم في الدفاع عن المظلوم، ومساوئ الطمع والتكبر على الناس.

ويقابل فلاحنا رنسى، وفي أدب رسميات بالغ، وسيطرة تامة على سياسة التخاطب الجارية، يظفر - الفلاح - باسترعاء سمع الرجل العظيم لحظة وهو مار، حتى يرسل خادما خاصا ليستمع إلى قصة الفلاح، وعندما عاد الخادم وأبلغ رنسى سرقة (تخوتي نخت)، يعرض (رنسى) المسألة على حاشيته من الموظفين.

وفي الحال يقف زملاء رنسى صفا في جانب مرءوسهم - تخوتي نخت - ويجيبون رنسى، في كثير من عدم المبالاة، بأن القضية، على الراجح هي قضية فلاح كان يدفع ما يستحق عليه إلى ضابط أعلى، غير مختص، وما فعل (نخت) إلا أنه استولى على ضرائب هي في الحق ملكه، ويسألون في امتعاض "هل يعاقب تخوتي من

أجل القليل من النطرون والقليل من الملح؟ (أو على الأكثر) ليصدر إليه الأمر لـرده وسيرده"؛ وتجاهلوا تماما أمر الحمير، ومعنى فقدانها موت الفلاح وأسرته جوعا.

وفي هذه الآونة يقف الفلاح إلى جانب ويستمع إلى من بيدهم السلطة وهـم يتهاونون في شأن خسارته القاضية ويهملونها، أما -رنسى - فإنه يقف في هـذه الفترة يتدبر الأمر في صمت.

إنها صورة تلخص عصورا من التاريخ في مصر القديمة، فمن جهة، الفريـق الماهر من حاشية الرجل العظيم، فريق المداهنين الخاضعين، وهم الطراز العام لطبقـة الموظفين، ومن الجهة الأخرى، الفلاح الذي أنتهب ماله، الشخص المهجور الـذي لا صديق له، والذي يمثل في شخصه الصيحة لأجل العدالة الاجتماعية، "إن هـذا المشهد هو واحد من أقدم الأمثلة لتلك المهارة الشرقية في وضع المبادئ المعنويـة في مواقف مادية" [1].

ويوجه (فلاحنا) خطابه إلى الرجل العظيم الذي تستقر قضيته بين يديه الآن، وينوه بما ذاع عنه من فعل المعروف، "لأنك أبو اليتيـم، وزوج الأرملـة، وأخـو المهجور، ودثار من لا أم له، دعني أضع اسمك في هذه البلاد فوق كل قانون صالح، أيها الزعيم الذي يخلو من الطمع، الرجل العظيم الذي يخلو من الحقـارة، الـذي يحطم الباطل، ويجلب الصدق، استجب إلى الصيحة التي ينطق بها فمي، اسـتمع عندما أتكلم، افعل العدل أنت الذي تمدح، الذي يمدحه أولئك الذين يمتدحـون، ارفع تعاستي، أنظر، إني مثقل، اختبرني، ها هو ذا أنا في حزن".

ويقول (فلاحنا الفصيح)، مخاطبا رنسى (الوكيل الأعظم)، ومذكرا له باليوم الآخر، وطالبا منه أن يقيم العدل، حتى ينال العدل بعد موته:

---

[1] برستد: تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص ٣٠٧.

"أيها الوكيل الأعظم، سيدي! إنك رع، سيد السماء، ومعك حاشيتك، إن كل شئون الناس (هي ملكك)، إنك تشبه الفيض (الفيضان) إنك النيل الذي يجعل الحقول خضراً، ويروي الأراضي البور، صد اللص، احم التعس، لا تكن سيلاً ضد من يتوسّل.

خذ حذرك (لأنّ) الأبدية تقترب، فَضِل العمل على القول (الذي يُضرب به المثل) إنه نسمة الخياشيم، فعل العدالة، أوقع العقاب على ذاك الذي يستحق العقاب، ولن يوجد شئ يشبه نهجك الصائب، هل تخطئ الموازين؟ هل ينحرف ذراع الميزان إلى جانب؟.. لا تنطق بالكذب (لأنك) عظيم (وعلى ذلك مسئول)، لا تكن ذا خفة (لأنك) ذو وزن، لا تنطق بالكذب، لأنك أنت الموازين، لا تنحرف لأنك مقدار صائب، هاك! إنك والموازين واحد، وإذا مالت (خطأ) فلنت تميل (خطأ).

"إنّ لسانك هو مؤشر (الموازين)، وقلبك هو المثقال، وشفتيك هما ذراعها."

وتظهر هذه الموازنات، مراراً وتكراراً، في خُطب الفلاح، بين صفات الوكيل الأعظم - رنسى - ووظائفه، وبين الموازين، والدرس فيها واضح، أنّ معيار الإجراء العدل يوجد بين أيدي الطبقة الحاكمة، وإذا فشلوا، فأين، إذن، يمكن أنْ يوجد؟ إنّ المتوقع أنهم سيزنون الصواب والخطأ، ويصلون إلى قرارٍ عدل، فيه العصمة التي تكون في الموازين الدقيقة، لقد أصبحت رمزاً شاع شيوعاً عظيماً في الحياة المصرية، حتى أنّ الميزان يظهر كوسيلة وصفية لتصوير محاكمة كل روح في الآخرة، وفي الواقع، بقي إلى يومنا، في يدي العدالة العمياء.

ويُلاحظ أيضاً، أنّ الفلاح يُذكر الوكيل الأعظم - رنسى - بظهوره هو أمام محاكمة الموازين التي لا تتحيز، ويقول:

"خذ حذرك (لأنَّ) الأبدية تقترب"! إنَّ هذه احدى الدعاوى القليلة ضد الجور أمام مسئولية الظالم المستقبلة.

وفي آخر شكواه التاسعة، وبعد يأسه من أنْ يرد له الحاكم حقه، يُذكر (رنسى) بأخطار مخادنة الخداع، إنَّ من يفعل ذلك، "لن يكون له بنون ولا ورثة على الأرض، أمَّا عن ذاك الذي يجر معه (الخداع) فإنَّه لن يصل إلى البر، وسفينته لن ترسو في مرفئها... لا يوجد أمس للذي لا يُبالي، ولا يوجد صديق لذاك الذي يصم أذنه عن العدالة، لا يوجد يوم سعيد للطمّاع".

ويقرر الفلاح قتل نفسه قائلاً:

" انظر! إني أشكو إليك، ولكنك لم تسمع فهل تريد مني أنْ أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس؟"

ثم غادر مكانه، فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه، وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلاً:

"إني تواقٌ إلى الموت، كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه)"

ولكن رنسى رد عليه قائلاً:

"لا تخف أيها القروي، انظر! إنك ستقيم معي". ثم يُرسل اثنين من الشرطة لإحضار "تحوتي نخت"، ويُرضي القروي إذ عوضه عن كل ما فقده، كما انتقم له فمن ظلمه دون وجه حق، فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتي نخت.

وتركز بردية (القروي الفصيح) على مطلبٍ أساسي ينبغي أنْ يضعه أولوا الأمر من الحكام نصب أعينهم دائماً وهو حماية الفقير من الغني، وأنْ يكون الحاكم

سياجاً يحمي الضعيف من عسف القوي، وألاّ يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوي النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا المساكين دون أنْ تنالهم يد العدالة.

كما أنّها - البردية - تُلح على ضرورة السعي وراء الحق، وتبيّن لنا كيف أنّ صغار الموظفين يظلمون الفقراء من الناس، بينما يعني كبارهم برد الحق إلى صاحبه متى وصل ذلك إلى سمعهم، لأنهم هم المسئولون عن ذلك، ونرى فيها أيضاً بوضوح أمر الخوف من عقاب الذي لا تخفى عليه خافية، عندما ذكّر فلاحُنا رئيس البيت الملكي بأنّه هو المسئول عن نكبته، وأنّه سيقف يوماً أمام الله ليجيب عن ظلمه له، لأنه لم يستمع إلى شكواه و لم ينصفه من تابعه.

وتُظهرنا هذه البردية على ما نشأ في مصر القديمة من وعي اجتماعي بعدم السكوت على الظلم وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسئولين بالنظر في مظالم مرؤسيهم وإنصافهم.

وأخيراً، فإنّ "الشكاوى التسع للفلاح المسروق" توضح أنّ خطاب الإنسان البسيط الذي يتحدث حديثاً حياً بما فيه من إيماءات، كان يعتبر منذ ذلك الوقت المُبكر مشهداً ممتعاً لا مثيل له، إننا نقف هنا عند حدود مسرح شعبي، فلا يعوز هذه القصة شيئاً لتصبح عرضاً مسرحياً، فالمناظر منصوبة، المشهد الأول، الطريق الممتد بمحاذاة القناة وحقل الشعير الواقع على الجانب الآخر، والفلاح ودوابه في مواجهة الشرير، وهناك مُمثلون صامتون والأعيان أيضاً المتواطئون تلقائياً مع الموظف الجشع القاسي، وبالإضافة إلى هؤلاء جميعاً هناك رئيس الحجاب نفسه، وهو على دراية تامة بألاعيب البشر فيتجنب أنْ يُصدّق حرفاً مما يقوله أهل القرية

وخدمه الخاص، إنَّه إنسانٌ عادل يفعل ما يمليه عليه منصبه، فيتنبأ بكل شئ ويخفف من الفقر الذي يعانيه رعاياه.

أمَّا خطب الفلاح المسروق، فتصور مشاعر الشاكي وجسارته واحترازه، فإزاء صمت الذين يُفترض أنَّهم قضاته يسعى (الفلاح) إلى البوح بكل شئ، ويُطلق العنان لشخصه، وقبل أنْ تظهر علوم البلاغة بزمنٍ طويل، مارس المصري فن الخطابة بالسليقة، الخطابة التي تُسحر عقل من يريد إقناعه، وتحول دون أنْ يدافع عن نفسه، أمام ولعه الشديد بحبكة الألفاظ، إنَّ الشعب المصري كان قد أدرك منذ ذلك الوقت مختلف إمكانيات اللغة.

إنَّ المثل الأعلى الرفيع للعدالة نحو الفقير والمضطهد الذي تعرضه قصة القروي الفصيح، ما هو إلا نسمة من ذلك الجو الخُلقي السليم الذي شاع في تفكير طبقة الموظفين الاجتماعي، وما هو جديرٌ بالذكر حقاً أن نجد هؤلاء الأرستقراطيين من حاشية فرعون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون بدرجة وافية بصالح الطبقات الدنيا.